محمود درويش

شعراء المقاومة ضد المقاومة !

□ اني اجد صعوبة في كتابة هذا المقال ، لانه ينقض خطأ ، او خطيئة ، ارتكبها اولئك الذين درجت الصحافة العربية على تسميتهم « شعراء المقاومة » في الارض المحتلة .

ومن البداية ، اجدني مدفوعا الى الاعتراف باني اتحاشى ، دائما، ملامسة منطقة هؤلاء الشعراء ، لاسباب اخلاقية وسياسية وشخصية . فليس من اللائق ان ابدي رأيا بزملاء سابقين ، عملت معهم ، وتعايشت معهم ، واختلفت معهم ، واقدر الظروف الخاصة التي يتحركون فيها .

واكرر .. اني اتحاشى التعبير عن رأي ، اي رأي ، بنشاط « شعراء المقاومة » وبنتاجهم في الارض المحتلة . واذا كنت اعتز كثيرا بكوني اول من حاول التصدي لحملة التمجيد العاطفي لشعر الارض المحتلة ايام كنت هناك ، فليس من اللائق ان اكرر اعلان هذا الرأي ما دمت قد انفصلت عنهم ، وصرت انتج خارج تلك الدائرة .

ولكن للمحاذير واللياقة حدودا تنتهي عندما تنتقل المسألة من الشعر الى القضايا العامة .

دعوا الشعر جانبا . فليست تلك هي المسألة .

لقد صدق بعض هؤلاء الشعراء انه يحلق فوق منطقة النقد ، واعطته قناعته بالحصانة الوطنية حق التلاعب او التساهل، السياسي بالقضايا الوطنية ذاتها . وهذا الامر .. هذا الامر وحده هو الذي يدفعني الان الى تخطي حدود المحاذير واللياقة والصداقة ، لمناقشة « شعراء المقاومة » في الارض المحتلة .

□ لقد اصدروا ، في الاسبوع الاول من شهر حزيران الماضي ، « نداء عاجلا الى شعوب المنطقة والعالم » وذيلوا النداء العاجل الذي اصدروه بالاشتراك مع مجموعة من الادباء الاسرائيليين بالرجاء التالي : « يرجى من الكتاب والمفكرين في اسرائيل وفي الدول العربية وفي العالم اجمع ـ الذين يودون الاعراب عن تجاوبهم مع هذا النداء او الانضمام اليه او المساعدة على نشره ، وكذلك ممن يود الاسهام في تمويل نشر هذا الاعلان في صحف اخرى ، في اسرائيل وخارجها ، ان يتوجهوا الى العنوان التالي : ..... تل ابيب » .

ليس النداء ، اذن ، ورقة سرية او مقالا عابرا ، انه اعلان عن بداية نشاط عالمي لاستقطاب اكبر قدر من تاييد الاهداف التي تضمنها النداء العاجل . فما هي هذه الاهداف التي تبناها « شعراء المقاومة » واستصرخوا الرأي العام العربي والعالمي للنضال من اجلها ، في هذه المرحلة الحرجة التي يمر بها الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، والقضية الفلسطينية بالذات ؟

ورد في النداء : « نحن الموقعين ادناه ، من الكتاب العرب واليهود، مواطني اسرائيل ، نتوجه بهذا الى شعوب المنطقة والعالم للعمل معا وبصورة فردية ، على ايقاف جميع اعمال الارهاب والعنف نهائيا، ضد النساء والاطفال خاصة وضد السكان المدنيين عامة ، ونقرر :

١ ـ ان استعمال طرق الارهاب ، الشخصية او الجماعية ، في المنطقة او في العالم ، لنيل اهداف ايا كان نوعها ـ يسقط عن صاحبه حق تمثيل المصالح القومية والسياسية والدولية والاقليمية .

٢ ـ انه لا يمكن لاية قضية من قضايا المنطقة ان تحل عن طريق العنف او القتال .

٣ ـ ان المنظمات المسلحة والحكومات مناشدة بهذا ان تتخلى عن كل استعمال للعنف ضد المدنيين وان تنهيا لمحادثات سياسية . وبعد ان تحقق المنظمات والحكومات هذا الشرط ـ فان الاطراف مدعوة الى الاعتراف احدها بالاخر ولابتدار محادثات السلام .

٤ ـ ان الحكومات او الجيوش او المنظمات المسلحة التي تقيم عن قصد اهدافا عسكرية وسط تجمعات السكان المدنيين ، مسؤولة بصورة مباشرة عن كل اصابة تلحق بمدنييها ، بمستوى ليس دون مستوى مسؤولية اي قوة معادية تستهدفها باصابتها حيثما كانت .

٥ ـ ان جميع حكومات المنطقة مدعوة الى الاعتراف بحق جميع شعوب المنطقة ودولها في تقرير مصيرها ، وبحقها في العيش بسلام وامن ـ وفي مقدمة ذلك حق الشعب اليهودي في دولة اسرائيل ، والشعب العربي الفلسطيني في دولته .

٦ ـ ان هذه المنطقة تعاني من هستيريا سنين طويلة ، حيث اصبحت الاعمال التحت ـ بشرية فيها جزءا لا يتجزأ منها . وهذه الهستيريا ناتجة ـ مما نتجت عنه ـ عن الصورة التي تدار بها الشؤون السياسية في هذه المنطقة على جانبي الحدود .

٧ ـ حل هذه القضية بصورة جذرية لن يبدأ الا حين يبتدر حوار مباشر وجوهري بين الشعبين ، لوضع حد للنزاع الطويل واللاضروري هذا .

٨ ـ هذا الحوار الجذري يمكن ان يبتدر اليه بالفعل ، بمعونة جماعة واحدة معينة ، على جانبي الحدود هي : الكتاب والمثقفون العرب واليهود .

٩ ـ ان على حكومات المنطقة ان تساعد الكتاب والمفكرين ، افرادا وجماعات ، بالمبادرة لعقد لقاءات اسرائيلية عربية في دول محايدة ، لاعداد الخلفية السيكولوجية والمناخية ـ بعد فصل القوات ـ لنجاح

مؤتمر جنيف » .

هذه هي اهم المبادىء التي تضمنها النداء كما نشر في صحيفة الاتحاد (٧-٦-١٩٧٤) والذي وقع عليه شعراء المقاومة في الارض المحتلة: حنا ابراهيم ، سميح القاسم ، عصام العباسي ، سالم جبران ، نزيه خير .

□ ان السؤال الصعب الذي تطرحه قراءة هذه المبادىء هو : لماذا وقع عليها « شعراء المقاومة » في الارض المحتلة ؟ وكيف تمكن هؤلاء الفلسطينيون من تقديم المبرر الاخلاقي للغارات الاسرائيلية ، على مخيمات ابناء شعبهم الفلسطيني ؟ وكيف تمكنوا من اقرار الصيغة التوفيقية بين الصهيونية وبين المقاومة الفلسطينية ؟. وكيف استطاعوا ان يقرروا تحميل الشعب الفلسطيني مسؤولية تشرده وموته مقابل تحميل السياسة الاسرائيلية نصف هذه المسؤولية ؟. وما هو الهدف من مراعاة مفكري الصهيونية في سعيهم الى تبرئة الصهيونية من مسؤولية تشريع قانون الارهاب في المنطقة، الى درجة مساواة الضحية بالجلاد ؟

ماذا حدث لهم : هل هو اليأس ؟ هل هي الانتهازية ؟ هل هو الجهل السياسي ؟ ام ماذا ؟ واذا اجتمعت فيهم كل هذه الاسئلة وعجزوا عن الاجابة عنها .. فلماذا وضعوا انفسهم ، دون ان يدروا ، في هذا السياق الصهيوني المؤلم ؟

ومن الصعب .. من الصعب جدا العثور على جواب .

اننا نستطيع ان نفهم دوافع طموح الشعراء ، والكتاب بشكل عام، في البحث عن دورهم في قضايا الشعوب المصيرية: ولكن الشرط الاولي لتلمس هذا الدور هو وضوح الرؤية ، والانحياز الثوري . فهل ملك « شعراء المقاومة » في الارض المحتلة وضوح الرؤية وانحازوا الى المجرى الثوري في تبنيهم هذه المبادىء ؟

واننا نستطيع ان نفهم صعوبة العثور على الحد الادنى من اللقاء على مبادىء مشتركة بين الطرفين العربي والاسرائيلي . ونعرف انه من المستحيل الاتفاق على كل مبادىء العمل السياسي المشترك بين الليبراليين الاسرائيليين والعرب . ونعرف ان اقصى حدود الاتفاق تنتهي عند تقديم المطالب الديمقراطية المحددة . فكيف فاد الخيال « شعراء المقاومة » الى الظن بقدرتهم على جر الليبراليين الاسرائيليين للتنازل عن مبادىء الصهيونية ؟ وانقلبت عليهم المحاولة ، فتنازلوا هم عن مبادىء المقاومة الاولية .

لماذا حدث هذا ؟ كيف حدث هذا ؟ ومن اجل ماذا ؟ الم يكن بوسعهم ، مثلا ، ان يكتفوا بالدعوة الى عدم الاعتداء على المدنيين ؟ هل كانوا ضحايا ذكاء الجانب الاسرائيلي ؟ ام كانوا ضحايا جهلهم السياسي ؟ ام كانوا ضحايا الافراط في الثقة بالنفس ؟

وهل كان هذا البيان خطأ .. ام خطيئة ؟

لنناقش بندا .. بندا .

□ يجب التمييز بين نوعين من العنف ، وبين نوعين من القتال . كان العنف سلاح الصهيونية لاجتثاث الشعب الفلسطيني من وطنه ورميه في التيه . ولا يزال العنف سلاح الصهيونية الاسرائيلية لتكريس غياب الشعب الفلسطيني الجسدي والقانوني. ولا يزال العنف سلاحها لابادة القدرة الفلسطينية على المطالبة بحقوقها ووطنها . وان ضرب المدنيين ، العرب والعرب الفلسطينيين ، هو السلوك الاسرائيلي الدائم .

ولعل « شعراء المقاومة » في الارض المحتلة يغنى عن تذكيرهم بحلقات العنف الاسرائيلي المتصلة .

ولعل « شعراء المقاومة » يعرفون ان المقاومة حين تقاتل فانها تسعى الى تدمير ناموس العنف الذي فرضته اسرائيل على شعوبهم العربية .

ولعلهم يعرفون ان الرد على العنف بالعنف هو حق اولي لكل الشعوب المسحوقة .

ولعلهم يعرفون ان اهداف القتال هي التي تحدد مدى شرعية القتال .

ان شعبهم الفلسطيني يقاتل من اجل تحريرهم وتحرير بلادهم من الاحتلال والعنف الصهيونيين .

وان اهداف العنف الصهيوني هي المحافظة على مكتسبات العنف الصهيوني ، وابقاء شعراء الارض المحتلة وابناء شعبهم تحت الاحتلال وفي التيه .

وما دام « شعراء المقاومة » يعرفون هذه الفوارق « الصغيرة » بين اهداف القتال العربي وبين اهداف القتال الاسرائيلي ، فلماذا اذن يشترطون رفضهم للصهيونية برفضهم للمقاومة الفلسطينية .

ان رفض القتال العادل معناه رفض الحرية والتحرر . فهل قرر « شعراء المقاومة » ان السعي الى الحرية والتحرر يستحق التنديد والرفض ؟

وان رفض القتال العادل من اجل الاهداف العادلة معناه تكريس الامر الاسرائيلي الواقع فهل قرر « شعراء المقاومة » المحافظة على الخطيئة الصهيونية فوق صدورهم ؟ انهم يقولون في بيانهم « ان القتال يسيء الى حل قضايا المنطقة » ، فما هو العلاج الذي يقترحونه لتلبية مطالب شعبهم الذي كان ضحية انتظار الحلول الاخرى ؟

يقولون في البند الثالث من ندائهم العاجل ان « الاحداث السياسية والاعتراف المتبادل بين المنظمات المسلحة والحكومات شرط لهذا الحل » .

الحكومات ، فهمناها ، فمن هي المنظمات المسلحة ؟.

اننا نفهم صعوبة العمل الثوري في دائرة القانون الصهيوني الاسرائيلي . ولكننا نعرف ايضا ان القانون الاسرائيلي لا يستطيع ادانة « شعراء المقاومة » اذا هم سموا بعض الاشياء باسمائها ، فلماذا اذن ينعتون حركة المقاومة الفلسطينية بـ « المنظمات المسلحة » ؟ واذا كان هؤلاء الشعراء لا يعترفون بهذه المنظمات بأنها « مقاومة » فهل يسمحون لنا بان نسميهم اذن « شعراء المنظمات المسلحة » .

الحل ، في رأيهم ، هو الاعتراف المتبادل بين هذه « المنظمات المسلحة » وبين اسرائيل . ونحن نسأل شعراءنا : بماذا تعترف المنظمات؟ هل تعترف بالسيادة اليهودية على ارض فلسطين .. وما هو المقابل ؟ وبماذا تعترف اسرائيل ؟ هل تعترف بالسيادة العربية على فلسطين ؟ ام تعترف بقرار التقسيم ؟ ام تعترف بتفكيك القاعدة الصهيونية لاسرائيل وانشاء الدولة الديمقراطية اليهودية العربية ؟.

لم يقدموا لنا جوابا ، لان الطرف الاسرائيلي الموقع على البيان يريد ابتزاز اعتراف فلسطيني بشرعية العدوان الصهيوني . ولعل شعراءنا يعرفون ان اعتراف الضحية بالقاتل ليس هو اساس العدالة بل يكرس شرعية القتل . وان اعتراف القاتل بالضحية لا يغير شيئا من مصير الضحية. ليس للاعتراف قيمة الا اذا كان قائما على اساس توازن متوازٍ . وان المطالبة بالاعتراف المتبادل ، في مناخ الغياب الفلسطيني ، هو انتصار الاغتصاب على الحق .

□ ونحن نسأل ، بحرقة : ما هو الفارق بين دعوة شعراء المقاومة الى الاعتراف المتبادل ، بعد الغاء القتال الوارد في البند الثاني، وبين دعوة وزير الاعلام الاسرائيلي التي جاء فيها ان اسرائيل مستعدة للاعتراف بمنظمة التحرير اذا اعترفت هذه المنظمة بالدولة اليهودية واوقفت عملياتها ضدها .. ما هو الفارق ؟

ونسأل بحرقة ايضا : ما هو الفارق بين تبرير اسرائيل لعمليات قتل الاطفال الفلسطينيين في مخيمات المنافي وبين موقف « شعراء المقاومة » في الارض المحتلة ؟

جاء في البند الرابع من بيانهم العاجل الى العالم : «ان الحكومات او الجيوش او المنظمات المسلحة التي تقيم عن قصد اهدافا عسكرية

وسط تجمعات المدنيين مسؤولة بصورة مباشرة عن كل اصابة تلحق بمدنييها بمستوى ليس دون مستوى مسؤولية اية قوة معادية تستهدفها باصابتها حيثما كانت » .

لا تحتاج هذه الفقرة الى ترجمة . فان المقاومة الفلسطينية هي المسؤولة عن تحول اطفال المخيمات الى قطع من الفحم، بحجة ان المقاومة تقيم قواعد لها في المخيمات . هذه هي الذريعة الاسرائيلية الدائمة في قتلها المستمر للاطفال الفلسطينيين العرب ، فكيف تبناها « شعراء المقاومة » ؟ وهي اكثر من تبرئة للوحشية الاسرائيلية . انها ادانة للمقاومة وتحميلها مسؤولية القتل . انها اكثر من عقد مساواة بين القاتل والضحية . انها ادانة للضحية الفلسطينية يسجلها « شعراء المقاومة الفلسطينية » !.

□ ومن هو المسؤول عن الاعمال « التحت ـ بشرية » التي تجتاح المنطقة ؟ ليست اسرائيل هي المسؤولة في نظر الموقعين على النداء . المسؤولية تقع « على الصورة التي تدار بها الشؤون السياسية في المنطقة » .

وما هو دور الادباء في هذه الحالة ؟ هل هو مكافحة بؤرة الحروب في المنطقة وما تمثله الدولة العنصرية من اغتصاب الارض والعدل ، ومساندة الكفاح الفلسطيني العربي العادل ، ام هو شيء اخر ؟ يحدد النداء مهمة الادباء « باعداد الخلفية السيكولوجية والمناخية ـ بعد فصل القوات ـ لنجاح مؤتمر جنيف » ؟!

ان السلام هو جوهر الادب . ولكن العدل والحرية هما جوهر السلام . وان الكفاح من اجل الحرية والعدل هو الكفاح ذاته من اجل السلام . ومن هنا تكون الدعوة الى السلام القائم على قاعدة المساواة بين الغزاة وضحاياهم دعوة الى الاستسلام . وهذه المساواة الظالمة بين المحتل الصهيوني وصاحب الحق العربي هي التي تسيطر على مبادىء هذا النداء . ومن هذه الزاوية ، فانه يشكل عقبة امام المعركة الحقيقية من اجل السلام الحقيقي ، ويشكل تمويها وتضليلا لوعي الكتاب في العالم .

لو كان هذا النداء صادرا عن الحكومة الاسرائيلية لكان اقل ايذاء وتاثيرا . ولكن تواقيع « شعراء المقاومة » في الارض المحتلة عليه يمنحه مصداقية مضللة ، لانه يسجل شهادة المظلومين بشرعية الظلم ، وتنازل شعراء المقاومة عن المحاكمات الفلسطينية للعدوان الاسرائيلي . ويطرح الكفاح الفلسطيني العادل خارج الاعتراف . من هو المقصود مثلا بالقول: « ان استعمال طرق الارهاب في المنطقة والعالم لنيل اهداف ايا كان نوعها يسقط عن صاحبه حق تمثيل المصالح القومية » ؟ فمن المعروف ان السياسة الاسرائيلية تعتبر المقاومة الفلسطينية حركات ارهابية لا يحق لها تمثيل الشعب الفلسطيني . وحين يقر بعض شعراء هذا الشعب الفلسطيني هذا الادعاء الصهيوني يصبح بوسع الدعاية الصهيونية ان تشهر هذه الشهادة التزويرية في وجه الضمير العالمي !

ومن هنا ، يحق لنا ومن واجبنا ان نرفض هذا النداء ، وان نعتبره تزويرا لارادة الشعب الفلسطيني وضميره ، وتشويها لحقيقة اشرف كفاح يقوده هذا الشعب المظلوم . ومن واجبنا ان نتصدى لفاعلية هذا النداء المتوقعة في ضمائر ادباء العالم . وعلى اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ان يصدر ، في اسرع وقت ، بيانا مضادا لمواجهة هذا النداء واحباط مفعوله ، وان يشرح ابعاد السلام ومعاني السلام الحقيقي في الكفاح الفلسطيني من اجل الحرية والتحرر . ان انتزاع شهادة تزوير من شعراء فلسطينيين ، مهما كانت الظروف التي دفعتهم الى التنازل ، هو مسألة خطيرة .. خطيرة جدا .

ونحن لا نريد الا ان نامل بان تواقيع « شعراء المقاومة » على بيان الدفاع عن السياسة الاسرائيلية كانت عملية ابتزاز . اننا ننتظر تراجعهم عن هذا الخطأ ـ الخطيئة الذي لا يبرره طموحهم الى العمل المشترك مع بعض انصار السلام الاسرائيليين . ان السعي الى التلاقي حول الحد الادنى من نقاط الاتفاق لا ينبغي ان يوصلهم الى قلب مفاهيم العدالة ، والسلام ، حتى لو كان الثمن الذي يدفعه الطرف الاخر من الحوار تضامنا معهم لرفع القيود المفروضة على حرياتهم الشخصية .

لقد رفعت السلطات الاسرائيلية اوامر الاقامة الجبرية عن بعض « شعراء المقاومة » في الارض المحتلة ، وصار بوسعهم ان يسافروا الى تل ابيب والقدس ومدن الضفة الغربية . فهل يكون التوقيع على هذا النداء ـ الخطيئة هو الثمن ؟

لا نعرف كيف حدث ذلك ، ولماذا حدث . ولكننا نعرف انه حدث. ونأسف .. ونتألم .

روايـات ومسرحيات مترجمة

من منشورات دار الآداب

ابك يابلدي الحبيب	آلان بيتون	الشوارع العارية	فاسكو براتوليني
زوربـا	نيكوس كازنتزاكي	الجحيم	هنري باربوس
انـا وهـو	البرتـو مورافيا	ماريانا	لوركـا
الانتباه	البرتو مورافيا	هيروشيما حبيبي	مارغريت دورا
مدام بوفـاري	غوستاف فلوبير	نساء طـراودة	جان بول سارتر
السفيـر	موريس ويست	تمت اللعبـة	« «
قصة حـب	اريك سيغال	مسرحيات سارتر	« «
الموت حبـا	بيار دوشين	الغثيـان	« «
الموت السعيـد	البير كامو	دروب الحرية ٣/١	« «
العراب	ماريو بوزو		